موقع الفكر عند الدكتور سليمان عشراتي * من خلال كتابه: "الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله غولن"

د. لطفي عبد الكريم
جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان
الجزائر

يعد المفكر الجزائري سليمان عشراتي من الذين أبدعوا في كتاباتهم و هي كثيرة ، حشر أغلبها في دراسات فكرية، حاول في بعضها المقاربة والمقارنة بين أفكار المفكرين العرب والمسلمين أمثال مالك بن نبي والنورسي وفتح الله غولن المفكر التركي ذي الرؤية الحداثية. و يقف سليمان عشراتي في أغلب مؤلفاته الفكرية عند مقومات البناء الحضاري، و يرى أنه لا يمكن لهذا البناء أن يقوم إلا بفضل استراتجية، هي كذلك لا يمكن أن تتحقق إلا على أرضية فكر مستنير رسخت قناعاته، واستقرت دعائمه، وتوطّدت خياراته، واكتملت مقومات تعبئته وانطلاقته في اتجاه تنفيذ الأهداف وبلوغ الغايات التي راهن عليها.

فكل استراتجية في نظر سليمان عشراتي لا يحالفها النجاح إذا لم تكن مستندة على فكر نيّر، وعزيمة قاطعة وتصميم متبصر في الرؤيا والتوقعات. ومحاولتي من خلال هذه القراءة هي الوقوف عند واحد من أعمال ومواقف الأستاذ سليمان عشراتي، وهو كتابه الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله غولن. ولا أزعم أنها قراءة نقدية وقفت عند كل ما حمله الكتاب من أفكار، بل أحسب عملي هذا وقوفا عند ما حمله الكتاب من مضمون فحسب؛ فلقد قسم الدكتور سليمان عشراتي كتابه إلى خمسة فصول منها الفصل الأول الذي كان مثار هذه الدراسة والذي حدد فيه عشراتي موقع الفكر من كل بناء حضاري .

إن المصاحب لكتابات الدكتور سليمان عشراتي يشده ذلك الأسلوب المتين وتلك القدرة الفائقة في الغوص في الشخصيات التي كتب عنها. قال فيه الدكتور أديب إبراهيم الدباغ كاتب مقدمة كتاب (الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله كولن): إنه يمتلك روحا فنيا مرهفا ونزوعا تشكيليا. فكتاباته تشكيلات في لوحات فكرية، أو فكرية في لوحات تشكيلية (2) . والقارئ لكتاب الانبعاث الحضاري لعشراتي سليمان يكتشف غزارة لغته، وسعة ثقافته، التي لم تقف عند حدود الجغرافيا التي احتوته، بل امتدت إلى رحاب هذا العالم الإسلامي تستحضر تلك الصروح المعمارية الحضارية وبخاصة الحضارة العثمانية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن أول ما يستوقفك وأنت تتصفح كتاب الدكتور عشراتي _ الانبعاث الحضاري _ هو حديثه عن الفكر، والفكر الإسلامي خاصة باعتباره مبعث الحضارة الإسلامية، هذه الحضارة التي يؤكد الكاتب أن أصلها ثابت يتمثل في القرآن الكريم وفروعها في السماء متمثلة في تلك التوليدات التشريعية التي ظل يستنبطها فقهاء المدينة، وعلماء الاجتماع وأرباب النظر العقلي المسلمون من خلال ترصُّد المستجد من القضايا الحياتية، وتمحيص القيم والنوازل حلالها وحرامها (3).

ويؤكد الكاتب أن الفكر الحضاري المسلم متفتح على الآخر ويُرجع هذا التفتح إلى كونية الدين الإسلامي؛ فالإسلام لم ينزل لمجتمع مخصوص، كما أنه ليس دين مدّة زمنية مخصوصة، بل هو دين التاريخ البشري كله منذ أن كان الإنسان و يبقى ببقائه. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي ربي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للَّهِ رَبِّ العالمين لاَ شَرِيكَ لَهُ وبذلك أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ المسلمين﴾ [الأنعام: 161-163]. إذن، فالإسلام دين شائع والمسلمون كلمة شائعة في الأديان. وبذلك، لا يقف الإسلام عند رسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فقط، إنما الإسلام خضوع من مخلوق لإله في منهج جاء به رسل مؤيَّدون بالمعجزات، إلاّ أن الإسلام بالنسبة لهذه الرسالات كان وصفا، لكن أمة محمد (ﷺ) تميزت بديمومة الوصف لدينها. إذن، ما يميز الحضارة الإسلامية هو بعدها الإنساني العالمي.

ثم ينتقل الكاتب للحديث عن تغير التفكير مع نزول القرآن؛ فلقد كانت ثقافة العرب قبل الإسلام شعرية تؤكدها أغلب المصادر التي وصلتنا عن أدب وفكر العرب قبل الإسلام، إلا أنه مع نزول القرآن وانتشاره في الآفاق تغير الفكر المسلم إلى فكر تنظيري تطبيقي، مارسه المفكر المسلم في شتى مناحي الحياة مستلهما من ذلك التلاقح الثقافي الذي لازم انتشار هذا الدين الذي كان من نتائجه بلوغ المسلمين سقفا معرفيا علميا عدّ مرجعا تنهل منه الأمم، و ما زال إلى يومنا هذا.

ويرى سليمان عشراتي أنه إذا كان القرآن الكريم والسنة النبوية أهم مصادر الفكر الإسلامي، فإن هذا الفكر لا تنحصر هويته في نطاق هذه الأصول، بل يقول الدكتور حتى الدخيل من الثقافات الهندية واليونانية وحتى الإسرائيليات قد تماست مع هذا الفكر وشكلت بعدا من أبعاد إحالاته ولو بسوْق الأمثلة والعبر. وبالتالي، يمكن القول أن هويّة الفكر الإسلامي تستجمع بنيةً متجذعة هي جداره الأصيل و عاموده القويم، من حيث تنامت الفروع وتكاثرت الغصون، أشبه بشجرة لها قائم مكين و
أدواح متكاثفة ممتدة في مختلف الاتجاهات (4).

بين الفقه والفكر:

يعقد الأستاذ سليمان عشراتي مقارنة بين الفكر والفقه، و يضع تعريفا بسيطا لكل منهما؛ فالفكر في نظره هو الفاعلية الذهنية التي تستهدف فهم الحياة والوجود واستقراء الوقائع الموصولة بالإنسان

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ماضيه وحاضره ومستقبله معتبرة الإنسان ماهية وجودية سواء أكان فردا أو جماعات مهيأةً للتحولات والتحديات المصيرية (5). في المقابل، يعرف الفقه بحقل مصادره الحوادث الحياتية والأنشطة المدنية والتعاملية مع وضع ضوابط لها وفق نظرة شرعية إلزامية.

ثم يغوص الكاتب في تحديد مكانة كل من الفقيه والمفكر، ويعود بنا إلى حقب تاريخية ماضية حين كان الفقيه صاحب الحظوة في سلّم المباحث والمقاربات الإسلامية. ويؤكد عشراتي أن هذه المكانة ازدادت تجنحا وتفوقا على حساب منزلة المفكر، مع العلم أننا لا نجد في القرآن سورة متفردة بذكر الأحكام الفقهية، في حين نجد سورا كثيرة _ خاصة المكية منها _ ليس فيها إلا المباحث العقلية الفكرية (6). و يُرجع الكاتب هذا إلى تثاقل وتيرة النماء في الحضارة الإسلامية وسيادة التكفف والكساد على الحياة في كافة مجالاتها المادية والمعنوية. ومن نتائج طغيان الفقه، هو تخصيصه بالعلمية حتى كاد أن يقال أن لا علم إلا علم التشريع الديني _ أي لا علم إلا العلوم الفقهية _. إلا أن هذه الحظوة التي نالها الفقه والفقيه في زمن ما لبث أن زالت في عصرنا هذا حيث تصدّر الفكر هذه المكانة، أو قلْ عاد المفكر إلى مكانته التي كان يجب أن يحظى بها والتي كفله الدين الإسلامي إياها؛ فالقرآن الكريم يذكر التفكير ويعتبره من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده فهو سخر لنا العقل آلة التفكير لعبادته وتعظيمه وتوحيده والتدبر في ملكوته، محققين الغاية التي من أجلها خلقنا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]. وقد ورد الحديث عن هذه النعمة في أكثر من موضع في كتاب الله عز وجل. قال – سبحانه وتعالى -: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78]. وفي مواضع أخرى، يوبخ الله القوم الذين عطّلوا عقولهم وتفكيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: 46]. و لقد عبّر الله عن الفكر بكلمات متعددة تشترك في المعنى أحيانا منها: (الفكر _ النظر _ التدبير _ الاعتبار _ الذكر _ العقل _ العلم ....) وغيرها من المعاني، و سائر هذه الملكات الذهنية التي تتفق أحيانا في المدلول (7) و الجدول التالي يبرز اهتمام الإسلام بهذه الوسيلة التدبُّرية العلمية:

الآيات التي تدعو إلى	تكرار الكلمة وجذورها	عدد الآيات	عدد السور
التفكير	18	17	13
التعقل	49	50	30
التذكر	292	279	71
التبصر	184	142	62

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النظر	129	113	48
الاعتبار	9	9	8
التفقه	20	20	12
مخاطبة أهل الألباب	16	16	10
المجموع	678 مرة	646 آية	254 سورة

ويؤكد الدكتور عشراتي أن أصواتا معاصرة نادت وتنادي بالجمع بين المشرب الفكري والمشرب الفقهي حيث يستحيل تعظيم العقل وتقديمه على النقل أو العكس، لأن ذلك يجر الأمة إلى زيادة في الحيرة وإثارة الشكوك. و المفكر المسلم المعاصر يجب أن يكون أكثر استيعابا لمعطيات وقته، وأكثر إدراكا لمقتضيات مرحلته وأعمق وعيا بمنطلقاتها وتلك تستلزم سلامة النهج ورشديَة الحراك والتوجه.

اتجاهات الفكر المعاصر:

ثم يتطرق الدكتور عشراتي إلى تعدد مشارب الفكر في العصر الحديث، وتنوع مناهجه إلا أنه يجمع تلك المناهج في منهجين اثنين هما: الفكر البراغماتي، والفكر الدوغماتي؛ فالبراغماتية تقوم على الأثر العملي، وتعتبره _ أي العمل _ المعيار الوحيد للحقيقة، في حين يقوم الفكر الدوغماتي على التّزمّت لفكرة معينة من قبل مجموعة، دون قبول النقاش فيها أو الإتيان بدليل يناقضها. والفكران وإن اختلفا مصطلحا فإنهما يجتمعان في الاندفاعية والانفعالية والاحتفال بذلك النجاح الموسمي غير المستمر، وكلاهما يستولي على أتباعهما الغرور بما تحقق دون قراءة الخواتم مع العلم أن العبرة بالخواتم كما قيل، إلا أنه حين تخمد نشوة هذا الغرور تتجلى نتائج وعواقب ذلك الاندفاع وتلك الحماسة الزائدة.

ثم يعمد الدكتور إلى تعريف كلا الاتجاهين؛ فالبراغماتية عنده تحكمها عقلية انتهازية، وروح الظفر المستعجل (8)، وهي كما نعلم وليدة الميكيافلية شجرة الشؤم _ كما سماها الكاتب _ التي أنبتت غابة كاملة من مناهج الذرائعية والمعارف المعاكسة للمنطق السوي والحسّ السليم، وهي مجرّد ادعاء لتحرر مزيف؛ فحين يتحلّل الفكر البراغماتي من الضابط الأخلاقي، يتخطى نطاق التزامه التحرر واتخاذ القرار معتمدا مبدأ (دعه يعمل اتركه يمر) ليتحول إلى فكر أعمى ينتهز الفرص ويصطنعها لتحقيقها بشتى الوسائل الممكنة. في المقابل، تسعى الدغمائية وراء الأفكار الجاهزة، والخط المرسوم والإذعان للأمر الفوقي، فتُفرغُ العقل من وظيفته فيجد الفكر نفسه في موقف المتلقي المنصاع المنتظر للمعلومات (9)؛ فهي تعيش تحت سلطة فوقية رادعة آمرة ناهية ولو على حساب القيم والأخلاق.

الحاجة إلى فكر جديد:

وفي ظل هذه التحديات التي يتعرض لها البقاء الحضاري للأمم، يرى الدكتور سليمان عشراتي أن العرب والمسلمين عامة أدركوا أن نهضتهم الحديثة لن تتحقق إلا بثورة عميقة شاملة بمستوى الانبعاث

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حتى يتمكنوا من المشاركة الجدية في مسيرة التقدم في العالم المعاصر (10). ولعل هذا الإدراك هو الذي دفع بكثير من المفكرين العرب والمسلمين أمثال مالك بن نبي، فتح الله غولن، النورسي، محمد أركون وغيرهم إلى التفكير في منهج فكري يخلص المسلمين من ربقة التبعية للآخر. وفي كتابه الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله غولن، يتطرق الأستاذ سليمان عشراتي إلى هذا الفكر الثالث البعيد عن البراغماتية والدغماتية _ التي سبق و أن أبخس تجارتهما _ و يتمثل هذا الاتجاه في الفكر الإيماني (11). لعل وقوف المفكرين العرب والمسلمين بما فيهم الأستاذ سليمان عشراتي على حقيقة مفادها أن الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية أدت إلى التشرذم العقائدي المتناقض بالركون إلى الفكر الغربي (12).

والفكر الإيماني يرى فيه الأستاذ أنه يؤمن بالماورائية، بعيدٌ عن السلطة الماثلة للعيان وهو فكر اتباعي (13). وحتى يحافظ هذا الفكر على بريقه، عليه أن لا ينغلق على نفسه باقتصاره على التواصل مع فكر أسلافنا الذي تبلور في عصور التراجع لحضارتنا الإسلامية على وجه الخصوص؛ ففي نظر عشراتي وغيره من المفكرين الحداثيّ الرؤية و البصيرة أن الانبهار بالأمجاد الماضية يجعل الفكر يذوب فيها، و تغدو العلاقة به علاقة سالبة خالية من الانتفاعية (14). وحتى يكون هذا الفكر فعّالا، يجب أن لا يقف عند ما يملكه من رصيد تراثي، يستذكره أحيانا ويتعاطف معه أحيانا أخرى، ولا أن يكون تابعا لفكر غربي قائم على الانفعالية والنفعية والانتهازية، بل يجب عليه أن يبني على ما يملكه من رصيد ويزيد من منجزات وفلسفات ومعارف بشرية؛ فعند ذلك يكون قد عمل على إحياء وتجديد الفكر وتحديث التراث وجعله يتماشى والواقع. ولتحقيق ذلك، يجب أولا القيام بحملة فكرية تسد هذه الثغرة التي نشأت ومانفكت تتعاظم منذ القرن السابع، كما يجب القضاء على الأعراف الراسخة من المذهبية العصبية والتقليدية الجامدة (15). وعند ذلك إذا يمكن القول أن الفكر الإيماني قد اكتسب نجاعته واستطاع تكييف قواه على هضم تلك المدود الثقافية، وتأصيلها وإدماجها في حقول معارفه (16). وعندها تتسع أرضيته الخصبة وتتنوع مغارسه وتتفتق رؤى اجتهاده، وتشحن بطرياته وتتحرك محركاته التي كانت بالأمس عاطلة أو معطّلة على حسب رأي الدكتور سليمان عشراتي.

وأخيرا، يمكن القول أنه رغم هذه التحديات التي تواجه الفكر الإسلامي، يرى بعض من يعملون في حقل الدعوة الإسلامية أن هذا الفكر بخير، وأن مدّ الغزو الفكر قد انحسر ومن هؤلاء الدكتور سعيد رمضان البوطي _ رحمه الله _ الذي يؤكد انحسار معظم الشبهات الفكرية والعلمية المختلفة التي كانت تغشى إلى وقت قريب عقول الكثير من الناشئة والمثقفين في طريق إقبالهم على الإسلام، إذ كان يدفع بها إليهم أناس احترفوا الغزو الفكري (17).

إحالات البحث

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1. سليمان عشراتي مفكر و أديب جزائري أستاذ بكلية الآداب و اللغات بجامعة البيض و قبلعا كان يعمل بجامعة وهران له مؤلفات عديدة أغلبها يتناول قضية الفكر و الهوية منها: هندسة الحضارة، الشخصية الجزائرية، الانبعاث الحضاري في فكر عبد الله غولن، النورسي في رحاب القرآن، الخطاب القرآني مقاربة توصيفية لجمالية السرد، جمالية التشكيل القرآني في رسائل النور، كما له سلسلة كتبها حول شخصية الأمير عبد القادر الجزائري منها: الأمير عبد القادر المفكر والأمير عبد القادر الشاعر والأمير عبد القادر السياسي تلك وأخرى من الكتب التي ألفها هذا المفكر الفذ.
2. أنظر مقدمة كتاب الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله كولن لسليمان عشراتي دار النيل للطباعة والنشر ط1 / 2012.
3. الانبعاث الحضاري، ص 16.
4. الانبعاث الحضاري، ص 18.
5. الانبعاث الحضاري، ص 19.
6. محاضرات في التفكير الإسلامي و الفلاسفة : عبد العزيز الثعالبي ص 124/123.
7. التفكير فريضة إسلامية: العقاد نهضة مصر للطباعة القاهرة (دت _ د ط) ص 9.
8. الانبعاث الحضاري، ص 22 بتصرف.
9. الانبعاث الحضاري، ص 22 بتصرف.
10. الفلسفة العربية المعاصرة مواقف و دراسات : أحمد ماضي ط1 بيروت سنة 1978 ص 15.
11. الانبعاث الحضاري في فكر عبد الله غولن ص 24.
12. الاتجاهات الفكرية عند العرب : علي محافظة ط2 بيروت 1978 ص 8.
13. الانبعاث الحضاري، ص 24.
14. أزمة الفكر الإسلامي الحديث، د. محمد عمارة، دار الفكر دمشق، ط 1 / 1998م، ص81.
15. قضايا الفكر د. الترابي معهد البحوث والدراسات الاجتماعية ط2 1995 ص75.
16. الانبعاث الحضاري في فكر عبد الله غولن ص 25.
17. هكذا فلندع إلى الإسلام لمحمد سعيد رمضان البوطي مكتبة الفارابي، دمشق، بدون تاريخ، ص4.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com